

## أهمية المشافهة في تعليم اللغة العربية<sup>(\*)</sup>

د. أحمد زياد محبّك

ما أهم المناشط في تعليم اللغة العربية؟ هل تكفي القراءة والكتابة وسيلة لتعليم العربية؟ هل هما أهم من المحادثة أو الاستماع مثلاً؟ هل الكتاب والملخصات والمدونات هي الوسيلة المثلى لتعليم العربية؟ لماذا غاب الاختبار الشفهي عن الامتحانات؟

هذه بعض الأسئلة التي يحاول هذا البحث الإجابة عنها.

ليست اللغة حروفاً وكلمات مكتوبة، ولا صحفاً وأوراقاً، إنما هي في المقام الأول ألفاظ منطوقة، وأصوات مسموعة، ثم جاءت الحروف والكلمات، والجمل والعبارات المنضودة في الصحف والأوراق، رموزاً تدل على اللغة. ويتعلم المرء اللغة أول ما يتعلمها أصواتاً وألفاظاً منطوقة، من خلال المحادثة والاستماع، ويظل يمارس اللغة على هذا النحو مدة من الزمن، ثم يتعلمها حروفاً وكلمات، فيمارس القراءة والكتابة، ولكنه لا ينقطع عن تعلمها محادثة واستماعاً.

والتعليم الحق لا يكون في الواقع إلا بهذه المهارات الأربع، المحادثة والاستماع والقراءة والكتابة، ويؤكد معظم الدارسين أولوية المحادثة والاستماع، لأن اللغة في طبيعتها وسيلة اتصال بين الناس من خلال اللفظ والصوت، قبل أن تكون وسيلة كتابة بالحرف.

ويتضح ذلك في اللغة العربية، فقد كانت في معظمها لغة شفاهية، تقوم على

---

(\*) من بحوث ندوة اللغة العربية والتعليم التي أقامها مجمع اللغة العربية في المدة ٢٢ - ٢٥ /

١٠ / ٢٠٠٠ م.

الصوت قبل الكتابة، والحفظ قبل التدوين، وهذا لا يضيرها في شيء، بل هو خصيصة تميزها.

ويؤكد ذلك النصوص الأدبية التي تجلت فيها تلك اللغة، والمقصود بتلك النصوص الشعر، الذي كان يتم تناقله شفاهًا بالحفظ والرواية من جيل إلى جيل على ما يزيد على مئتي عام قبل الإسلام ومئة عام بعده، إلى أن كان التدوين، وما كان يدون من قبل فهو نادر جدًا، وقليل، بل كان لا يدون إلا لقيمة فنية واجتماعية واعتبارية معينة، على نحو ما كان من تدوين الملاحظات وتعليقها على أستر الكعبة.

ثم نزل الوحي الأمين على محمد ﷺ بالقرآن الكريم شفاهًا، وتلقاه النبي محمد ﷺ سماعًا وحفظًا، وليس في ألواح مكتوبة ولا رقم، وكذلك رتّله على أصحابه من حوله، وكذلك تلقوه بالسمع والحفظ في الصدور، لا في السطور.

ولم يلجأ أبو بكر وعثمان رضوان الله عليهما، فيما بعد إلى جمع القرآن الكريم في مصحف وتوزيعه على الأمصار إلا للحفاظ على وحدة النص، وظل القرآن الكريم يتلى كما كان يتلوه رسول الله ﷺ، ويتلقاه الرجال ويسمعونه ويحفظونه، وفي أثناء ذلك كله، يتم الحفاظ على طبيعة الصوت واللفظ، كي يتلى القرآن ويرتل ويجود تعبدًا لله تعالى، وامثالاً لأمره ﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾، واتباعًا لسنة رسوله بتجويد القرآن.

وهكذا يتم تعليم العربية، من خلال القرآن الكريم، بالسمع والنطق، عبر المشافهة والحفظ، وتلقي الرجال بعضهم عن بعضهم، حضورًا ومشافهة، وعندما جاء التدوين في مرحلة تالية وتنقيط المصحف وضبطه، إنما جاء لا ليكون التعليم من المصحف المكتوب، إنما ليكون المصحف المكتوب بعلاماته ورموزه الكتابية معينًا على الحفاظ على اللفظ والنطق والترتيل والتجويد، وما يزال كذلك إلى اليوم.

وفي هذا ما يؤكد أهمية السماع واللفظ، والحفظ والمشافهة، وهذا كله من خلال القرآن الكريم الذي منح العربية خصوصية تميزها من غير شك. وإذا المسلم اليوم يتلو القرآن الكريم بأصوات حروفه وألفاظه وسكناته وحركاته ومدوده وإمالاته ووقفاته وترقيقه وتفخيمه وإدغامه وإظهاره وإقلابه كما كان يتلوه الرسول محمد ﷺ والصحابة والتابعون، على نحو من الأنحاء، يتم فيه الحفاظ على أصوات العربية.

ويؤكد ذلك على سبيل المثال أن العربي في مصر يلفظ الجيم في حديثه اليومي أقرب إلى الكاف المفخمة، ولكنه حين يتلو القرآن الكريم يلفظ الجيم كما يجب أن تلفظ. وكذلك أحرف من نحو الذال والطاء والثاء، قد يلفظها العربي في بعض الأقطار العربية بصورة غير صحيحة، ولكنه حين يتلو القرآن الكريم يلفظها على نحو ما يجب أن يلفظها بوصفها أحرفاً لثوية.

ولم تكن المشافهة وسيلة لتواتر القرآن الكريم من جيل إلى جيل، بل كانت أيضاً وسيلة لنقل حديث رسول الله ﷺ، وحفظ الشعر، وتدوين الأخبار والوقائع، ولذلك ظهرت مصطلحات من نحو: حدثنا فلان عن فلان، وسمعت فلاناً، وقرأت على فلان، وشاعت هذه المصطلحات في علم الحديث، وفي كتب الأدب واللغة، وفي كتب التاريخ والأخبار، وكان الخبر المروي شفاهاً وسيلة للتدوين والتأليف، وكانت المشافهة وسيلة لنهوض علوم كعلم الحديث واللغة والنحو والعروض والتاريخ.

إن ما تعتر به علوم العربية حقاً هو نهوضها على المشافهة، أي على التعليم الذي يكون بقاء الإنسان الإنسان، وتواصله معه، عبر اللغة، ناقلة العلم، وليس من خلال الصحف والأوراق وحدها.

على أن هذا لا يلغي قيمة الحرف والكتابة، ولا أهمية الصحف والأوراق، فقد دونت العلوم كلها، وتحولت إلى كتب، وافتتحت دكاكين الوراقين، وكان الكتاب

يحمل على ظهور الإبل من المشرق إلى المغرب، ومن صقع إلى صقع، وتفنن الوراقون في رسم الحرف، وتزيين صفحات الكتاب بالرسوم، وكان المترجم يمنح زنة كتابه ذهبًا، وقد أشاد الجاحظ مطولًا بالكتاب، وقدم وصفًا له، يدل على تقدير الحضارة العربية للكتاب. على أن هذا كله ظل مرتبطًا بالمشافهة، ولم يقيم الكتاب وحده بمهمة التعليم، بل كان وسيلة لها، وكان الأساس هو القراءة على الأستاذ، والاستماع إليه، وهو ما نسميه المحادثة والاستماع، وهو ما اختصرناه بالمشافهة، وقد ظلت المشافهة مستمرة إلى جانب الكتاب، وإذا دل هذا كله على شيء فإنه يدل على أن للسمع الأثر الكبير في حفظ العربية ونقلها من جيل إلى جيل.

وقديمًا كان أجدادنا يأخذون على المتعلم أخذه عن الصحف وحدها، فيقولون عنه: صحفي، لأن التعليم الحق يكون بالجلوس إلى المعلمين في حلقات التعليم في المساجد، وبقراءة التلميذ الكتاب على أستاذه، في جلسات تمتد ربما أعمامًا حتى يتم الكتاب الذي يقرؤه على أستاذه، في حضور تلامذة آخرين، والقراءة تتضمن السؤال والجواب عن قضايا في الأدب واللغة والنحو والإعراب وجوانب العلم الذي يقرأ فيه، إن طبًا فطب وإن رياضيات فرياضيات، وهكذا.

وهذا يدل على ارتباط التعليم دائمًا بالمشافهة، ولا يكون المتعلم متعلمًا بمجرد إتقانه القراءة والكتابة، أي مجرد معرفته الألفاظ والحروف، لأنها محض رموز تدل على اللغة، وليست اللغة نفسها، ولذلك كانت اللغة تسمى لسانًا، لأن اللسان هو وسيلة النطق والتلفظ، وهو جزء أساسي في جهاز النطق، وكذلك كلمة اللغة نفسها في أحد الآراء، فما هي إلا من اللغو، الذي هو الحديث والكلام، ولذلك قالت العامة: العلم في الصدور لا في السطور، ساخرين ممن يجيد القراءة والكتابة ولكنه لا يفقه العلم ولا يحفظه.

ولذلك درس أجدادنا جهاز النطق لدى الإنسان وحددوا مخارج الحروف،

ووصفوها، وصنفوها، وتقدم هذا العلم لديهم، واكمل، ووصلوا فيه إلى نتائج علمية محددة، من غير أن تكون لهم آلات رصد الصوت، وقد وُضعت فيه عشرات المصنفات، وما يزال علمًا حيًّا يتم تلقيه، تحت اسم علم التجويد. كما درس اللغويون مظاهر أخرى في الصوت كالروم والإشمام والإمالة والوقف، ووضعوا لها قواعدها وأصولها، مما يؤكد الحرص على تعليم النطق بالعربية والتلفظ بها وإجادة أصواتها.

ومن المؤسف تقصير العرب اليوم في مجال العناية بأصوات العربية ونطقها ولفظها في تعليمهم، ولا سيما الجامعي، وتحول التعليم فيها إلى قراءة نظرية في الصحف، وكتابة يؤديها الطالب في الامتحان من غير أن يقرأ أمام أستاذه، وفي حالات كثيرة من غير أن يستمع إلى إلقاء أستاذه، فأصبحت الكلمة المطبوعة وحدها الوسيلة إلى تلقي العربية، وصار المتخرج في قسم اللغة العربية، لا يجيد القراءة، ولا يحسن الإلقاء، ولا يقدر على الأداء الصحيح لأصوات لغته وهو المختص بها، والمعلم لها.

وربما كان مرجع ذلك إلى الأعداد الكبيرة للطلاب، وهو ما لا يتيح للمدرس أن يستمع إليهم جميعًا، ولا يساعده على المحادثة معهم، ولكن هذا السبب على الرغم من قوته ليس مسوِّغًا لغياب نشاط أساسي في عملية التعلم وهو المحادثة والاستماع، ليس في تعليم اللغة العربية وحدها، بل في تعليم العلوم كلها.

إن المحادثة والاستماع نشاطان أساسيان في عملية التعلم والتعليم، ولا تقوم العملية التعليمية على صورتها الصحيحة إلا بهما.

ومن المؤسف أن المقررات الجامعية في السنوات الأربع للاختصاصات كافة لا يتضمن أي منها مقرر المحادثة والاستماع، أي لا يتضمن مقررًا شفهيًّا له علامة

مستقلة، ويعد مادة مرسبة. ولذلك أهمل الطالب مثلما أهمل المدرس على حد سواء أسلوب المحادثة والاستماع، واعتمد كلاهما على أسلوب التلقين والتدوين والملخصات واعتماد الكتاب والمادة المكتوبة وسيلة للتعليم والامتحان والنجاح، بعيداً عن المحادثة والاستماع، أي بعيداً عن تكوين جهاز نظقي سليم للمتعلم، يجيد من خلاله أداء لغته أداءً فنيًا صحيحًا، فلا يخطئ في نطق، ولا يغلط في لفظ، ولا يزلُّ في إعراب.

إن الطالب في قسم اللغة العربية يتقن قواعد النحو، ويجيد الإعراب، ويحسن تقطيع بيت الشعر على الورق كتابة بالخط، ولكنه بعد ذلك لا يجيد إلقاء بيت من الشعر، ولا يحسن قراءة بضعة أسطر، من غير أن يقع في عدة أخطاء، لأنه لم يتدرب على الإلقاء، ولم يمارس المحادثة، ولم يتقن فن الاستماع.

وبالنسبة إلى الامتحان فالأمر أكثر سوءًا، فهو امتحان كتابي، تختبر فيه معلومات الطالب كتابة، ويحقق الطالب النجاح بقدر ما يعيد من أقوال المدرس وما يكرر من المادة التي دوّنها في أثناء إلقائه المحاضرة، وقد أتقن الطلاب هذه اللعبة، فأخذوا يصطنعون الأمليات والكراسات يضمنونها محاضرات المدرس، ليعيدوا في الامتحان ما قاله، وليحفظوا بأعلى الدرجات، ثم ينسوا كل ما حفظوه.

وعندما يخفق الطالب، لا يعرف لماذا أخفق، ولا يعرف أخطائه، ولا يتاح له مراجعة أوراقه، ولا يتاح له محاورة مدرسه، والإصغاء إليه، ولا يستطيع المدرس أن يقف طلابه على أخطائهم، ومرجع هذا كله إلى وفرة الأعداد، وغياب عنصر المشافهة في التعليم.

ولقد تضمنت بعض المقررات ما يسمى حلقات بحث، ولها في المقرر الواحد عشرون درجة من مئة، وتسميتها تدل على أنها مجال للبحث بإشراف المدرس وما يكون في الإشراف من محادثة وحوار واستماع وتوجيه نحو المصادر والمراجع ومخطط

للبحث ينتهي بأوراق مكتوبة لها درجة مقدرة.

ونظام حلقات البحث يتيح في الحقيقة للطالب والمعلم معًا فرصة تحقيق المشافهة، محادثة واستماعًا وحوارًا، كما يتيح فرصة التدريب على البحث والعودة إلى المظان والمراجع، ولكن هذا النظام تحوّل في الواقع إلى أوراق مكتوبة يقدّمها في نهاية الفصل الطالب للمدرس، من غير أن يداوم في بعض الحالات، وإن داوم على المحاضرات فإن فرصة إلقاء البحث والاستماع إليه ومناقشته لا تكاد تتحقق.

وهكذا خرجت حلقات البحث من الهدف المنشود منها، وهو المحادثة والحوار والاستماع، والتعرف إلى المظان والمراجع، والتدريب على الكتابة وفق مخطط وتبعًا لمنهج، فأصبحت محض وريقات مكتوبة، يجمع الطالب فيها معلومات من هنا وهناك، جمعًا بطريقة ما، ثم يتقدم بها إلى المدرس، ولا يكاد يحاوره فيها، وفي حالات كثيرة، يأخذ حلقة بحث من زميل له سبقه بسنة أو بعدة سنوات، ولا يستطيع المدرس أن يضبط هذا.

وفي معظم الحالات غابت عن العملية التعليمية المشافهة بين المدرس والطالب، وحلّ نظام التلقين والتدوين، وأخذت الكلمة المكتوبة مكان الكلمة المنطوقة، وما عاد الطالب يمارس المشافهة في تعلمه.

إن المحادثة تعلم الطالب تنظيم أفكاره، وإعدادها، قبل النطق بها، كما تنمي فيه حسّ البداهة، والمبادرة، وسرعة الكشف، وتعودّه على حسن الأداء، وسلامة النطق، وقوة التعبير، كما تدريبه على تطبيق قواعد الإعراب، وتعلمه فن التأثير في الآخر، وجذب انتباهه، وإقناعه بالحجة، وهي وسيلة للتعلم، واكتساب المعرفة.

والمحادثة لا تكون من طرف واحد، إنما هي علاقة ذات طرفين، وبذلك تحقق البعد الاجتماعي، والتواصل مع الآخر، وتعلم المتحدث أصول الحوار، وشرط المحادثة من غير شك المعرفة والثقافة، والتهديب والاحترام، وضبط الانفعالات،

وتوجيه المشاعر، وهي تكسر مشكلات الخجل والإحراج والخوف، وتنمي شخصية الطالب.

ومن لوازم المحادثة الاستماع، وهو من مناشط اللغة، إذ لا يتقن المرء اللغة إلا بحسن الاستماع، ولا يتحقق إلا بالإصغاء إلى المتحدث بالعين والقلب والسمع، من غير مقاطعة حتى يتم حديثه، ويساعد على اكتساب المعرفة، وتنمية المدارك، وتقوية القدرة على الفهم والاستيعاب، والإحاطة بالمادة المسموعة، ونقدها، والحكم عليها، والتدخل بالحديث عند الضرورة، أو وفق الدور، وبالتهذيب وحسن البدء.

ومن أسف أن الطالب الجامعي كاد يعطل مهارة الاستماع لديه، بانهماكه بتدوين ما يلقيه المدرس في المحاضرة، وهو يعتمد اعتماداً كلياً على ما يدونه، ولا يلقي بالألّا إلى ما يسمع، ولديه يقين بأنه سيقراً فيما بعد ما دونه في دفتره، ولذلك لا يستوعب ما يسمع، ولا يحيط به، ولا يسأل مدرسه، ولا يحاوره، لأنه يرجى الفهم والاستيعاب إلى مهارة أخرى يعول عليها هي القراءة للمادة المكتوبة، وبذلك كاد الطالب نفسه يلغي مهارة الاستماع والمحادثة باعتماده على التدوين والقراءة.

ومما لا شك فيه أننا لا ندعو إلى إلغاء القراءة بل نؤكد أهميتها، ولكن ليس على حساب المحادثة والاستماع، ومما لا شك فيه أيضاً أن الاستماع نشاط صعب، إذ يقتضي التوجه إلى المتحدث بكل القوى الفاعلة والمنفصلة، واستيعاب ما يقوله، وهي عمليات صعبة، متعبة، سرعان ما يملها الطالب ويتعب، ولذلك تأتي المحادثة والحوار مع المدرس، لتنعش الطالب، وتجدد انتباهه، وتحنه على المتابعة، وإدراك ما يسمع، وفهمه، والحوار على أساس منه.

ومرة ثانية تظهر مشكلة الأعداد الكبيرة للطلاب، إذ لا تساعد كثرة العدد كالأ من المدرس والطالب على إتقان الاستماع والمحادثة، إذ يضطر المدرس إلى الاستمرار في الإلقاء، ولا يعطي فرصة للسؤال أو الحوار، كي لا يحدث الشغب في قاعته،

وتعمّ الفوضى، وبالمقابل، يملّ الطالب من هذا الاسترسال في الإلقاء، ويتعب من طول الإصغاء، فيشغل بالكتابة، أو يتشاغل، ولا يستطيع المتابعة، ولا يحقق حسن الإصغاء.

إن التعليم الصحيح في المراحل كلها لا يتحقق إلا بالانطلاق من طبيعة اللغة وهي كونها أصواتاً مسموعة وألفاظاً منطوقة قبل أن تكون حروفاً مكتوبة، وما الحروف المكتوبة إلا رموز لتلك الأصوات، ولا يتحقق التعليم الصحيح إلا بتحقيق جوهر اللغة، وهو الصوت المسموع، واللفظ المنطوق، انطلاقاً من الإشارات المصوغة في حروف وكلمات، ولا بد لذلك من مهارتي المحادثة والاستماع.

وإن المرء ليعجب من إهمال مدرسي العربية أصول النطق الصحيح للحروف والتلفظ الجميل بالكلمات أو إعراب الجمل وسلاسة التعبير في إلقاءهم وقراءتهم، ولا يعطون العربية حقها من روعة البيان وسحر الإيقاع، حتى إن بعضهم ليؤكد أن المعول عليه هو المعنى والأفكار والحقائق والمعلومات ولا قيمة للغة، ويقول مثل هؤلاء لطلابهم: عبّروا كيفما شئتم، المهم هو الأفكار والمعلومات.

ومثل هذا الفصل بين المعلومات والأفكار وإتقان اللغة غير صحيح على الإطلاق، ولا يمكن للمعلومات أن تترسخ وتنضج إلا بالتمكن من اللغة وامتلاكها والوعي بمبادئها وقيمها الفنية والجمالية.

وتظل مرحلة التعليم الفرصة الوحيدة أمام الطالب ليتقن لغته ويتعلمها ويحسن أداءها نطقاً ولفظاً، أما المعلومات فيمكنه أن يستكملها فيما بعد من خلال القراءة والمطالعة.

إن المرجو هو حرص المدرسين عامة ومدرسي اللغة العربية خاصة على سلامة النطق، وبلاغة التعبير، ليعودوا طلابهم على سماع لغتهم العربية، وليس عيباً أن يستعين مدرسو العربية بأجهزة السمع ورسده وتسجيله في تعليم الطالب لغته العربية

على نحو ما هو متبع في تعليم اللغات الأجنبية.

إن قلة الاعتماد على المشافهة في التعليم من محادثة واستماع هي أحد أسباب تراجع العربية الفصيحة، وطغيان العامية، حتى كادت الفصيحة تتحول إلى لغة الكتابة والقراءة فحسب.

إن ما تعتز به العربية حقاً هو حفاظها على أصواتها التي لم يطرأ عليها إلا تغير محدود جداً، وهذه سمة من سماتها الخاصة بها، فنحن نتكلم العربية ونلفظها، بأصواتها مثلما كان ينطقها الأجداد قبل نحو من ألفي عام، ولا بد من التأكيد أن الحافظ لهذه السمة المميزة هو القرآن الكريم بفضل تلاوته.

وإذا كان العربي يريد أن يحفظ لغته حقيقة، وإذا كان يرغب في تعلمها والنطق بها وأدائها الأداء الصحيح والجميل، فما عليه إلا أن يعود إلى القرآن الكريم، لا ليقراً في المصحف بعينه قراءة صامتة أو يتلوه فحسب، بل ليستمع إلى كبار القراء من خلال أشرطة التسجيل، وليستمع إليهم بقلبه وعقله وسمعه وحواسه كلها، ويتنبه إلى أدائهم الجملة، ولفظهم الكلمة، ونطقهم الحرف، ولينظر بعيني سمعه وقلبه إلى مواطن الجمال والسحر والبيان في النطق والأداء، وعندئذ يمكنه أن يتلو بعد ذلك القرآن الكريم ويتعلم العربية.

وفي هذا كله ما يؤكد أخيراً أن السماع والمحادثة، أو ما نسميه المشافهة، هو منشط أساسي في العملية التعليمية، ولا سيما تعليم اللغة العربية.